عزمي بشارة

أن تكون عربياً في أيامنا

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩). ٢٣٩ ص.

فيصل درّاج(*)

مفكر وناقد أدبي.

ـ ١ ـ

يتضمن كتاب د.عزمي بشارة الجديد جملة دراسات ومحاضرات وكلمات، قدمها خلال أقل من عامين، من منتصف عام ٢٠٠٧ وحتى بداية عام ٢٠٠٩. غير أن توزّعها على مناسبات مختلفة لا يمنع عنها التكامل والاتساق، وذلك لسببين: فهي مرآة متعددة الوجوه لفكر كاتبها، وهي تتمحور حول موضوع أساسي عنوانه الأكبر: أزمة العالم العربي، التي تحيل مباشرة على أزمة «القضية الفلسطينية»، وعلى السياستين الأمريكية والإسرائيلية، اللتين تشكلان عنصراً داخلياً في هذه الأزمة وإعادة إنتاجها. يحكم هذا الترابط مواضيع الكتاب، ويجعل منها موضوعاً واحداً متعدد العناصر؛ يعالج العجز العربي المتجدد، والرفض الإسرائيلي لـ «الواقعية العربية»، والانحياز الأمريكي الثابت الذي يقدم لـ «المعتدلين العرب» وعوداً كلامية، ويزوّد دولة إسرائيل بما تحتاج إليه في الميادين المختلفة.

ـ ٢ ـ

يقرأ الكتاب، في مداخلاته المتنوعة، موضوعين متداخلين لا يمكن الفصل بينهما: فشل العرب في الدفاع عن القضية الفلسطينية، وفشل الفلسطينيين في الدفاع عن قضيتهم، وعجز الطرفين عن توليد سياسة جديدة، تحرّر العرب من عجزهم، وتعيد إلى القضية الفلسطينية معناها الواضح المحدد. ولهذا تظهر مقاصد الكتاب واضحة في جملة دالة كثيفة تقول: «المسألة العربية هي جوهر القضية الفلسطينية، وليس العكس صحيح (ص ١٣٩). يعني إعلان القضية الفلسطينية مرجعاً للمسألة العربية، وهو ما يرفضه د. بشارة، بأن على العرب أن يهبّوا جميعاً لنجدة إخوتهم

(*) البريد الإلكتروني: info@azminah.com.

الفلسطينيين، وهو شعار مستهلك قديم، بينما المطلوب إعادة بناء المجتمعات العربية، كي تصبح قادرة على التعامل الفاعل مع القضية الفلسطينية، من حيث هي قضية عربية عامة، لا تخص الفلسطينيين وحدهم. وعلى هذا فإن اختصارها إلى صراع إسرائيلي ـ فلسطيني، لا يعبّر عن «استقلال القرار الفلسطيني»، بل عن «تبعية النظام الرسمي العربي»، الذي أسهم في إنتاج وهم «الخيار الفلسطيني»، كي يتحلل من «مسؤولياته القومية» ويصدّر نزوعاته القطرية إلى الحقل السياسي الفلسطيني، الذي رحّب بعض العاملين فيه بهذه النزوعات.

السؤال الكبير الذي يدور حوله الكتاب هو التالي: إذا كان جوهر القضية الفلسطينية، أي المسألة العربية، يعاني التداعي والعجز والخراب، فما هي آفاق المسألة وجوهرها في آن؟ يردّ الكاتب على السؤال بشكلين: يعرض **أحدهما** وجوه التداعي السياسي والأخلاقي والقيمي في الوطن العربي، ويقدم **ثانيهما** اقتراحات محددة لتجاوز الخراب والانفتاح على أفق جديد. يلامس بشارة، وهو يتأمل الخراب العربي، الأنظمة والأيديولوجيات القطرية والمستجدات العربية ساعياً إلى وضوح لا مساومة فيه، وموطّداً الوضوح بمعرفة نظرية بعيدة عن الاستسهال. لا غرابة أن يبدأ الباحث القومي، بقراءة الفكرة القومية العربية ومصائرها متوقفاً أمام الأسباب التي قادتها إلى هزيمة متوالدة، وموجزاً الأسباب في ثلاثة: ممارسات القوميين خارج السلطة، التي لم تجسّد روح الفكرة القومية، وممارساتهم داخل السلطة، التي أنجزت الإقصاء لا الوحدة الاجتماعية المتحاورة، والفكر القومي الذي عجز عن تجديد ذاته. بيد أن الباحث لا يكتفي بإشهار السلب، بل يعود إلى جيل مخلص من القوميين العرب الكبار، الذين قدّموا، رغم أخطاء كثيرة، مشروعاً وطنياً سياسياً شاملاً، خلق نسقاً من القيم والطموحات والأخلاق والثقافة، وقاتل من أجل المصلحة الوطنية والقومية قبل أن يأتي زمن مهزوم يختصر المشاريع السلطوية كلها إلى دفاع عن مصالح النخبة الحاكمة. ولعل سيطرة الفئوي المعزول، كما انحسار الدفاع عن العام والجماعي، هو سبب الأزمة المعنوية والثقافية والأخلاقية، كما يرى د. بشارة.

ـ ٣ ـ

أكّد خطاب بشارة، الباحث عن التجديد، أن الفكرة القومية فكرة حديثة، لا تستوي إلا بفضاء سياسي ديمقراطي، فلا حداثة بلا ديمقراطية، وباعتراف جدّي بالعدالة الاجتماعية، على مستوى النظر والعمل، ذلك أن الوعي القومي ليس له حيّز كبير في مجتمعات تخترقها فروق اجتماعية باهظة. ولعل هذه الفروق هي التي أسست، في العقود الأخيرة، لانقسام ثقافي ـ لغوي، إذ اللغة العربية من نصيب الفئات الفقيرة، وإذ اللغة الإنكليزية، بشكل خاص، للفئات الصاعدة الحديثة الغِنى والثروة. يستدعي توحيد العرب قومياً، بهذا المعنى، سياسات اقتصادية وثقافية ولغوية جديدة، تجسّر المسافة بين فئات المجتمع المختلفة، وهو ما أسهب طه حسين في الحديث عنه، قبل عقود سبعة.

يتعرض بشارة، في كتابه إلى الليبرالية العربية الجديدة، التي يوهم «حديثها المتكلس» بأن القومية العربية هي سبب

تصدّع المجتمعات العربية، في حين إن العكس هو الصحيح، ذلك أن إخفاق المشروع القومي العربي هو الذي جلب معه تصدع المجتمع وتوزّعه على شظايا مختلفة الانتماءات. وعلى هذا فإن إعادة توحيد المجتمعات العربية لا يتم بالاعتراف بالطوائف والقبائل والعشائر وبتسييس الطوائف، وهو ما يجري اليوم في العراق وغيرها، بل يتم بشكل متدرج بمشروع قومي جديد، يوحّد بين الديمقراطية والحداثة الاجتماعية، ويعترف بالمواطنة وبحقوق المواطنين المتساوية. اتكاءً على هذا المنظور، يرفض بشارة النزوعات الطائفية ويرفض، أولاً، الأنظمة السياسية التي تنتجها، من خلال سياسة ترى مصالح النخبة الحاكمة ولا ترى مصالح الأمة. وواقع الأمر أن ركون بشارة إلى مفاهيم العدالة الاجتماعية والديمقراطية وحقوق المواطنة هو الذي يجعله يميل إلى إدانة النظام العربي كله، وخاصة «أنظمة الاعتدال»، التي تحاول نشر الهزيمة في الوطن العربي كله، حالمة بيوم سعيد يمحو المسافة بينها وبين الإدارتين الإسرائيلية والأمريكية.

ما موقع القضية الفلسطينية في كل هذا؟ إذا كان جوهر القضية الفلسطينية، أي المسألة العربية مثقلاً بالتحلّل والفساد والخراب، فإن عَرَضَه الخارجي، أي المسألة الفلسطينية، لن يكون إلا صورة عنه. ولهذا حملت «دولة فلسطين»، التي ليست بدولة، صفات النظام العربي الرسمي، بدءاً من الفساد والمحسوبيات و«امتيازات القربى»، وصولاً إلى أيديولوجيات قطرية، مُضمرة حيناً وسافرة حيناً آخر. بل إن هذه الدولة، التي ليست بدولة، أخذت بممارسات النظام العربي السياسية: فهي ترى في الولايات المتحدة وسيطاً يعتمد عليه، وتسلك سبيل «الاعتدال» مع المعتدلين الإسرائيليين الذين لا وجود لهم، وتنسق مع «دول الاعتدال العربية» التي تقنع الفلسطينيين بأن المقاومة ضلال وأن التفاوض، الذي لا نهاية له، طريق إلى الفرج. إضافة إلى ذلك ينتقد بشارة وجوهاً أخرى جعلت العمل السياسي الفلسطيني معوقاً، منذ زمن، وتزايدت إعاقته لاحقاً منها: ذهنية ريفية مدرسية لا تربط بين الشعارات ووسائل تحقيقها، واهتمام مفرط بـ «الاهتمام الدولي» الذي يهتم بحل القضية اليهودية على حساب القضية العربية لا غير، وغياب المشروع الوطني الذي يحقق الإجماع ويخلق دينامية جديدة تجمع بين الداخل الفلسطيني والشتات،... ولعل هذه العناصر السلبية، المدعومة بنظام عربي مأخوذ بسلامته الذاتية، هي التي تجعل من مشاريع «السلام» و«الانفراج» أمراً متباعداً، من ذلك «الدولة الفلسطينية المستقلة»، أو مشاريع قديمة علاها الغبار مثل «دولة المواطنة»، أو «الدولة ثنائية القومية»، ذلك أنها تحتاج إلى ميزان قوي آخر، وتصطدم بعقيدة «أمن إسرائيل»، التي تفصل بين الكلمات ومواضيعها، وبين المواضيع وتعريفاتها المحددة.

والسؤال المنتظر: كيف يمكن إيقاظ «جوهر القضية الفلسطينية» وامتداداته الخارجية؟ الجواب قائم في التوصيف والتحليل، اللذين تقدم بهما د. بشارة، القائل بمشروع قومي سياسي جديد، ينطوي على دعم الحقوق الفلسطينية، و يشتق منه الفلسطينيون مشروعاً وطنياً صحيحاً. يظهر في هذا المجال معنى عنوان الكتاب: «أن تكون عربياً في أيامنا»، الذي يعني الاستلهام

النقدي لتجربة الفكر القومي الحديث، والوعي بأن القومية العربية ظاهرة حديث، تتعين بجملة من العلاقات الحديثة، تتضمن الديمقراطية وحقوق المواطنة والحداثة.

ـ ٤ ـ

قدّم عزمي بشارة كتاباً يتسم بالراهنية وخصب الأفكار، ساجل فيه أطرافاً كثيرة، إن لم يساجل الأطراف جميعاً، بدءاً من القومية الشكلانية وصولاً إلى «الواقعية الطائفية»، مروراً بالليبرالية الطريفة، التي تسخر من الفكر القومي وتثني على «الحداثة العشائرية». يحرّض الكتاب، مع ذلك، على ثلاثة أسئلة على الأقل:

يمس **أولها** جملة مطمئنة تقول: «القومية لا تتناقض مع الدين، وهما يتكاملان في حالة العروبة والإسلام» (ص ٣٤). ومع أن القارئ يعترف بالدافع العملي، أو البراغماتي، لهذا القول، فإنه لا يستوعبه سريعاً لأمرين: إذا كانت القومية ديمقراطية المضمون وحداثية الرؤية، فهل يعترف الدين الإسلامي المسيطر اليوم بهما؟ وهل هناك من إسلام، بصيغة المفرد، يبنى عليه ويعتد بأقواله؟

يرتبط السؤال **الثاني** بأفق القومية العربية وتوسيعه، يقول المؤلف: «ولا شك في أن القوى القومية مقتنعة تماماً بأن النهوض العربي غير ممكن دون إذكاء روح مقاومة الاحتلال الأجنبي في الأمة» (ص ٤٨)، لكنه يقول، في أكثر من مكان، إن شرط المقاومة ضد إسرائيل ارتبط دائماً بـ «ضعف الدولة»، فكيف يتحقق النهوض القومي إذا كان «معاقبة المقاومة» عرفاً عربياً رسمياً؟ أكثر من ذلك: هل هناك من أفق قومي للمقاومة في حال «غياب مشروع عربي ذي معنى يمنح المجتمعات العربية بوصلة سياسية....، أو على الأقل اتجاهاً للنقاش» (ص ٦٤) كما يقول المؤلف.

يتعلق السؤال **الثالث** بالحال الفلسطيني، يقول المؤلف: «إن المرحلة هي مرحلة وقف توسع خطاب التسوية والتطبيع مع إسرائيل، وردّه على أعقابه، وبدء صعود خطاب سياسي جديد... وهذه عملية بدأت في قمة غزة في الدولة، ويجب أن تستمر وتندفع» (ص ١٩٩). يسرد بشارة في هذه الكلمات رغباته الذاتية، ناسياً أن توقف «خطاب التسوية» يحتاج إلى تفكيك وإعادة تركيب النظام العربي، وأن «صعود خطاب سياسي فلسطيني جديد»، يستلزم تفكيك وإعادة تركيب الطرفين الفلسطينيين «المتناقضين»، أي سلطة رام الله وسلطة غزة، وهو أمر يحتاج إلى «ترتيب شؤون الخليقة بشكل جديد».

أعطى عزمي بشارة، في كتابه **أن تكون عربياً في أيامنا** موقفاً وطنياً واضحاً، لا تلعثم فيه ولا مساومة، وخطاباً نظرياً عميقاً متماسكاً، وأعطى، في الحالين، كتاباً ضرورياً، يحتاجه الباحثون عن أفق عربي بديل □